الفصل السابع عشر

فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلام، وفيه مدح العالمين [١]، وذم الغافلين عنه، وتفسير الغريب، والمشكل من القرآن، باختصار الأصول الدالة على المعنى

فأمّا ظاهرُ الكلامِ فعلى مَعْنَيين عَجِيبين، وهو مجملٌ مختصرٌ، وموصل مكرّر. فإجماله واختصارُه للبلاغة والإيجاز، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فى هذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦]، ومكرره وتَفْصيله للإفهام والتذكار. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٥١].

وقال عزّ وجلّ فى المبهم المجمل والتوحيد المفصّل: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ، فهذه ثلاثة أسماء: الله، لطيف، رحيم. وقيل: بل هى حروفٌ من اسم وهو الرحمن، ثم أظهر السَّبب فقال: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ يعنى بالتوحيد، ثم ﴿فُصِّلَتْ﴾ أى بالوعد والوعيد، ثم قال: ﴿مِن لَدُن حكيم﴾ أى للأحكام ﴿خبير﴾ أى بالأحكام، خبير بالتفصيل للحلال والحرام ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلا اللهَ﴾ هذا هو التوحيد الذى أحكمه ﴿إِنَّنِى لَكُم مِنهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١ ـ ٢] هذا هو الوعد والوعيد الذى أعلمه.

فمن المختصر للإيجاز قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩]، ففى هذا مختصر ومحذوفان؛ فالمُضْمر قوله: ﴿مُبصرة﴾ المعنى: آية مبصرة، فأُضمر. ومحذوفاه: قوله: ﴿فظَلَمُوا بِها﴾ المعنى: ظلموا أنفسهم بالتكذيب بها، فاختصرت كلمتان من كلمتين للإيجاز.

---

(١) فى (ك): «العاملين به» وهذا العنوان مختصر فيها.

ومثله قوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِها﴾ [البقرة:٢٥٩] الخواء: الخلاء. والعروش: السقوف، وهو جمع عَرش، فكيف تكون خاوية من العروش، والعروش موجودة فيها. فهذا من المختصر المحذوف، ومعناه: وهي خاوية من ثمرها، أو من أهلها، واقعة على عروشها.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة:١٧٧]، حُذف الفعل وأُقيم الاسم مقامه، فالمعنى فيه: ولكن البرَّ برُّ مَن آمن بالله. وقد يكون من المبدل، فيكون المحذوف هو الاسم أُبدل الفعل مكانه، والمعنى: ولكن البر، [أى الرجل البَرُّ][1] مَن آمن بالله، فلمّا كان البرُّ وصفَه أُقيم مكانه.

وبمثل المعنى الأول قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِمُ العِجْلَ﴾ [البقرة:٩٣] أى حب العجل.

ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤]، ولم يذكر قَتلَه. والمعنى: بغير نفس قَتلها، فحذف الفعل.

ومثله: ﴿أَنَّه مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فى الأَرْضِ﴾ [المائدة:٣٢] أضمر قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ قَتلها، أو بغير ﴿فسادٍ فى الأرض﴾، فاكتفى عنه بذكر «غير» الأولى.

وكذلك قوله: ﴿مَنْ فِى السَّمَوَاتِ والأرضِ﴾ [آل عمران:٨٣] معناه: ومن فى الأرض.

وكذلك قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين:٧]، هو متصل بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] وفصل بينهما النعت والاستثناء، والمعنى: فما يكذبك بعد هذا البيان أيّها الإنسان بالدِّيانة فأى شيء يحملك على التكذيب، بأن تدين لله تعالى، وهو أحْكَمُ الحاكمين؟

---

(١) كانت العبارة ناقصة مضطربة فى المطبوعة هكذا: «فيكون المحذوف هو اسم أبدل الفعل مكانه ولكن البر من آمن بالله» وأصلحتها من (ك).

ومن المبدل المضمر أيضًا: ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾ [الإسراء:٧٥] المعنى: ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى، فأضمر ذكر العذاب، وأبدل الإحياء والممات[1] بذكر الحياة، فأقام الوصفَ مقامَ الاسم. ويصلح أيضًا أن يترك الوصفَ على لفظه، ويضمر «أهل»، فيكون ضعف عذاب أهل الحياة وضعف عذاب أهل الممات، كما أضمر «أهل» فى ذكر القرية وذكر العير فقال: ﴿وَسْئَلِ القَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيها والعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، والمعنى: واسأل أهلَ القريةِ، واسأل أهل العير.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هو من المبدل المضمر، فمبدله ﴿ثَقُلَت﴾ ومعناه: خفيت، أُبدل بدلالة المعنى عليه؛ لأنّ الشيءَ إذا خَفِيَ علمه ثَقُلَ. وكذلك قوله ﴿فى السموات﴾ معناه: على، ومضمره «أهل»، والمعنى: خفيت على أهل السموات وأهل الأرض، ﴿لا تَأتِيكُم إلاَّ بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧] يعنى: فجأة.

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٥]. فيه مضمر، ومحذوف. فمحذوفه «تزال» ومضمره «لا» التى هى جواب القسم. والمعنى: قالوا: تالله لا تزال تفتؤ تذكر يوسف، فأُضمرت لا وأُبدلت «تزال» بقوله: ﴿تَفْتَؤُ﴾، وهى من مختصر الكلام وفصيحه وبليغه، وهى لغة لبعض العرب، وفى القرآن من كل لغة.

ومن هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم:٢٨]، معناه: تجعلون شكر رزقكم أنّكم تكذّبون، وكذلك بدّلوا شكر نعمة الله كفرًا بها.

ومثله: ﴿فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الحج:٤٥]، ﴿وَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ [الحج:٤٨]، معناه: أهل قرية، مثل قوله: ﴿وَسْئَلِ القَرْيَةَ التى كُنَّا فيها

(١) فى (ط): «والموتى» وأثبت ما فى (ك).

والعيرَ﴾(1) [يوسف:٨٢] المعنى: أهل العير، والعير هى الإبل المجهولة، وهذا الذى يُسميه النحويون: «المجاز».

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] معناه: للطريقة التى هى أقوم. ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣] أى: يقولوا الكلمة التى هى أحسن.

ومثل هذا قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦] أى: بالكلمة أو بالفعلة التى هى أحسن. ومثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء:١٠١] أى: الكلمة الحسنى. والوجه الآخر: أن الحسنى اسم لا نعت، فمعناه: الجنة. وهكذا قوله: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢] أى: على عهد ملك سليمان، فأضمر «عهد». ومثل قوله: ﴿وآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران:١٩٤] أى: على ألسنة رسلك، فأضمر «ألسنة».

ومن المكنَّى المضمر قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف:٦٣] أضمر الحوتَ وذكرَه واسْمَ موسى للاختصار، والمعنى: وما أنسانى ذكرَ الحوتِ لك إلا الشيطان.

ومثله قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١] أى: أنزلنا القرآن، فكنّى عنه ولم يتقدّم له ذِكْر.

وكذلك قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] يعنى: توارت الشمس بحجاب الليل، فكنَّى عنها ولم يجرِ لها ذكر.

ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت:٣٥] أى: الكلمة الطيبة أو الفعلة التى هى أحسن. وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:٨٠] يعنى: كلمة الزهد فى الدنيا، ومقالة الترغيب والرغبة فى الآخرة،

(1) هذه الآية ليست بالمخطوط، وكانت مختلة فى المطبوعة هكذا: «وسئل العير» وليست هذه فى القرآن.

عائد على قوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ﴾ أى: هذه المقالة.

ومن المبدل المختصر قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦] معناه: حملته العزة على الإثم، أى حمله التعزز والأنَفَة على الإثم ولم يبال. فأخذته بمعنى حملته بالإثم، بمعنى على الإثم.

ومن هذا قوله: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] أى: لا تحمله سنة ولا نوم؛ لأن السِّنَة تحمل العبد، أى تذهب به عن التيقُّظ.

ومن المنقول المنقلب قوله عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُواْ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ [الحج:١٣]، اللام فى «لمن» منقولة، والمعنى: يدعو مَنْ ضره أقرب من نفعه. ومثله: ﴿لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ﴾ [القصص:٧٦] معناه: لتنوء العصبة بها، أى لتثقل بحملها لثقلها عليهم. ومثله قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:٢]، ﴿سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات:١٣٠] وهو مما قلب اسمه، لازدواج الكلم. المعنى: طور سينا وسلام على الياسين، قيل: إدريس، لأن فى حرف ابن مسعود: «سلام على إدريس». ونحوه: ﴿جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١] أى: إعضاه، كأنهم عَضوه، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. وبمعناه: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠] المعنى: وجعل منهم من عبدَ الطاغوتَ. ويصلح أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ومَنْ ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾. ومن قرأ: «الطاغوت»[1] بالكسر فإنه يجعل «عَبُدَ» اسمًا، وأضافه إلى الطاغوت، بمعنى: وعَبَدة، وعبّاد. وفيه خمس لغات أخرى: عُبّاد الطاغوت، وعُبُدَ الطاغوت، وعَبَدَةَ الطّاغوت، وعابد الطّاغوت، وعُبُدَ الطاغوت. وأما «عَبَد الطاغوتَ» نصبًا، فهو بمعنى الفعل من العبادة.

ومن المضمر المختصر أيضًا قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود:٦٠] ضميرُه إحدى كلمتين: كفروا نعمة ربهم [أو] كفروا توحيد ربهم،

(١) قرأ حمزة وحده: «وعبُدَ الطاغوتِ»، انظر: السبعة فى القراءات، ص٢٤٦.

فأُضْمِرَ للاختصار، وانتصب الاسم لسقوط الخافض. وفيها وجه غريب إلاّ أنّه محمول على المعنى؛ لأنه أى: غطّوا ربهم التغطية، أى غطوا آياته وما دعا إليه من الحق، والمعنى: كفرهم، أى غطى عليهم بما غطوا ربهم. هكذا حقيقة فى التوحيد، إذ الأولية فى كل فعل منه، وهم ثوانٍ فيما بعد، فهو بمعنى قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩] اللبس: التغطية.

ومنه قوله: ﴿والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِه أَوْلِيَاءَ ما نَعْبُدُهُم﴾ [الزمر:٣] مضمره: يقولون ما نعبدهم. ومثله: ﴿فَظَلْتُم تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة:٦٥ ـ ٦٦] أى يقولون: إنّا لمغرمون. وعلى هذا المعنى وُجِّه قوله: ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ القَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾ [النساء:٧٨ ـ ٧٩]، المعنى فيه: يقولون ما أصابك، على معنى الإخبار عنهم والذم لهم. فهلكت بذلك «القَدَرِيّة» لجهلهم بعلم العربية، فظنّوا أنّه ابتداءُ شرع وبيانٌ من الله عزّ وجلّ، وقد أحكم الله عزّ وجلّ ابتداءَ شرعِه وبيانَهُ بأوّل الآية فى قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء:٧٨].

وقد كان ابن عباس يقول: إذا اشتبه عليكم شيءٌ من القرآن فالتمسوه فى كلام العرب، فإنّ الرجل يتلو الآية فيعيا بوجهها فيكفر.

وقرأتُها فى مصحف عبد الله بن مسعود: «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا. قالوا ما أصابك من حسنة». فهذا كما أنبأتكَ.

وقد رأيتُ فى مصحف عبد الله: «والذين اتّخَذُوا من دونه أولياءَ قالوا ما نعبدهم». فهذا من ذلك.

ومن المضمر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَلاَئِكَةً فى الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠] ليس أنه يجعل من البشر ملائكة، ولكن معناه: لجعلنا بدلاً منكم ملائكة، ويصلح: لجعلنا بدلكم، بمعنى: منكم.

ومن المبدل له قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون.٦١] اللام بدل من

الباء، والمعنى : وهم بها سابقون، لأنّهم لو سبقوها لفاتتهم. وعلى هذا المعنى قال بعضهم: إن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الاعراف:١٤٣] أى بالجبل، كان الجبل حجابًا لموسى فكشفه عنه، فتجلّى به، كما قال: ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص:٣٠]، فكانت الشجرة وجهةً لموسى، كلّمه الله عزّ وجلّ منها.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١] معناه: على جذوع. وكذلك: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٩٤] معناه: أى مع القوم. وبمعناه: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨] أى: عليه، ويصلح «به». وكذلك قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ [المؤمنون:٦٧] أى: عنه، يعنى عن القرآن.

فعلى هذا مجاز قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] أى: سل عنه. فحروفُ العوامل يقوم بعضها مقام بعض.

ومثله قوله [تعالى]: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل:١٨] أى: فيه، يعنى فى اليوم. ومثله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة:١٥٠] معناه: ولا الذين ظلموا، فأُبدلت بإلا، ولا يجوز أن تكون «إلا» مستأنفة بمعنى: لكن الذين ظلموا، متصلة بخبرها من قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فهو بمعنى قوله: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أى: لكن من ظلم ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل:١٠ ـ ١١]، فيكون مبتدأ لذكر خبرها بعد. وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء:٢] أى: مع أموالكم. وكذلك قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦] أى: مع المرافق؛ لأنها داخلة فى الغسل.

والحروف العوامل تنوب بعضها عن بعض، ولو أظهر مثل هذا المضمر ووصل مثل هذا المحذوف لكانت القراءة ضعيفة.

ومن الموصول المكرر للبيان والتوكيد قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [يونس:٦٦] قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ مردود،

ردّه للتوكيد والإفهام، كأنه لما طال الكلام أُعيد لِيَقْرُبَ من الفهم. والمعنى: ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴿إلاَّ الظَّنَّ﴾ ، أى: اتباعهم الشركاء ظنًا منهم غير يقين.

ونحوه من المكرر المؤكد [قوله عز وجل]: ﴿قالَ الملأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِه لِلَّذينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمنَ مِنهُم﴾ [الأعراف:٧٥] اختصاره: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا، فلما قدّم الذين استضعفوا، وكان المراد بعضهم، كرر [للإفهام][١] المراد، بإعادة ذكر من آمن منهم للبيان. ومثله: ﴿إلاَّ آلَ لُوطٍ إنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعينَ * إلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ [الحجر:٥٩ ـ ٦٠]، فأدخل الاستثناء على الاستثناء، وهو يطول فى كلامهم، لأنه أراد بالنّجاة بعضَ الآل، فلما أجملهم أخرج مستثنى من مستثنى. وفى هذا دليل أنّ الأزواج من الآل، لأنّه استثنى امرأته من آله.

ومن المكرر للتوكيد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ مختصره: فلما أراد أن يبطش. وقد قيل: إن هذا من المختصر المضمر مما أُضمر فيه الاسم وحُذف منه الفعل، وهو غريب؛ فيكون تقديره: فلما أن أراد الإسرائيلى أن يبطش موسى ﴿بِالَّذى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ فلم يفعلْ ﴿قَالَ يَا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى﴾ [القصص:١٩]، فهذا حينئذ من أخصر الكلام وأوجزه.

ومن المكرر المؤكد قوله عزّ وجلّ: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كان عَاقِبَةُ الَّذينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر:٢١]، مفهومه وجائزه: فينظرون كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة، فوصل بـ «من» ووكّد بـ «كان» وعَدَّ لهم[٢]، وقرأتُها فى مصحف ابن مسعود: «عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدَّ قوّة» ليس فيها «كانوا» ولا قوله «هم».

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «ووكد فكان هم أشد» وأثبت ما فى (ك).

وبمعناه، وإن قَصَر، قولُه تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الزخرف:٣٣]، هذا مما طُوِّل للبيان، والمعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، فلما قدَّم «مَنْ» وهى أسماء من يكفر أعيد ذكر البيوت مؤخراً.

ومن المكنَّى المبهم المشتبه قوله عزّ وجلّ: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ﴾ [النحل:٧٥] الشىء فى هذا الموضع: الإنفاق مما رزق الله. وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ﴾ [النحل:٧٦] الشىء فى هذا الموضع: الأمر بالعدل والاستقامة على الهدى. وكذلك قوله: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْئَلْنِى عَنْ شَىْءٍ﴾ [الكهف:٧٠] الشىء فى هذا الموضع: وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم الذى علمه الخضر عليه السلام من لدنه، لا يصلح أن يسأل عنه حتى يبتدئ [هو][1] به؛ فلذلك كنّى عنه. وكذلك العلم على ضربين:

ضرب لا يصلح أن يُبتدأ به حتى يُسأل عنه؛ وهو مما لا يضيق علمه، فلذلك وسع جهله وحسن كتمه.

وعلم لا ينبغى أن يُسأل عنه، من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية، لا يُوكل إلى العقول بل يُخصّ بها المراد المحمول. فعِلْمُ الخَضِر الذى شرط على موسى عليهما السلام أن لا يسأل عنه حتى يبادئه به من هذا النوع، واللهُ غالبٌ على أمره.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور:٣٥] يعنى الله تعالى، أى: كيف يكون خَلْق من غير خالق؟ ففى وجودهم ثبوت خالق، فهم دلالة عليه أنّه خلَقهم. وروينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن على رضى الله عنهما، قالا فى قوله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أى: من غير ربّ! كيف يكون خلق من غير خالق؟!

(١) زيادة من (ك).

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ﴾ [النحل:٧١] فالبعض الأوّل المفضَّل فى الرزق هم الأحرار، والبعضُ الآخر المفضول هم المماليك.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [ق:٢٣] قرينه هذا هو المَلك الموكَّل بعلمه، أحضر ما عنده مما عَلِمه من فِعْله. وقوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ [ق:٢٧] قرينه هذا هو شيطانه المقرون به.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٢] الهاء والميم المتصلة بـ «إخوان» أسماء الشياطين، والهاء والميم المتصلة بـ «يَمُدُّونَ» أسماء المشركين، أى الشياطين إخوان المشركين، يمدّون المشركين فى الغىّ ولا يقصرون عنهم فى الإمداد.

وبمعنى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل.١٠٠] الهاء الأولى المتصلة بـ «يَتَوَلَّوْن» كناية عن إبليس، والهاء المتصلة بالباء من قوله «هم به» هى اسم الله عزّ وجلّ، وقد قيل أيضًا: إنّها عائدة على إبليس أيضًا، فيكون المعنى: هم به قد أشركوا فى التوحيد، أى أشركوه بعبادة الله عزّ وجلّ.

ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات:٤ ـ ٥] «الهاء» الأولى: كناية عن الحوافر، وهنّ الموريات قدحًا، يعنى: الخيل تقدح بحوافرها فتُورى النار، «فأثرن به» أى: بالحوافر النقع، يعنى التراب. «والهاء» الثانية: كناية عن الإغارة، «فوسطن» أى توسطن به بالإغارة، وهنّ المغيرات صبحًا، وسَطْنَ جمعَ المشركين [الذى][1] أغاروا عليهم بجمعهم، والمشركون غارون.

وبهذا المعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف:٥٧] الهاء الأولى عائدة على السحاب، أى: أنزلنا بالسحابة الماء. وفى

(١) زيادة للبيان من تفسير القرطبى ٢٠/ ١٦٠، وهى ساقطة من (ك) و (ط).

قوله «به» مُبدل ومُكنًّى. فللكنى: هو ما ذكرناه من أ ماء السحاب. والمبدل: أن «به» بمعنى «منه».

ومثل هذا قوله: ﴿يَشْرَبُ بِها عِبَادُ اللهِ﴾ [الإنسان:٦] أى: منها، وهو صريح قوله فى المفسَّر: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبا:١٤] يعنى: السحاب، وهو قوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾، وقوله فى الهاء الثانية: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف:٥٧]، يعنى بالماء، فجمع بين اسم السحاب والماء بالهاء فأشكل.

ومن البيان الثانى والثالث للخطاب المجمل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥] فلم يفهم إلا أن القرآن أُنزل فى شهر رمضان، ولم يُدْر أنهاراً أُنزل فيه أو ليلاً؟ فقال فى البيان الثانى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، فلم يُفهم منه إلا أنه أُنزل منه ليلاً فى ليلة مباركة، ولم يدر أى ليلة هى، فقال فى البيان الثالث: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، فهذا غاية البيان.

وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ﴾ [القصص:١٤]. فهذا البيان الأوّل زيادة على الأشد وهو الوصف، إلا أنه غير مفسَّر. ثم قال فى البيان الثانى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الاحقاف:١٥] ففسّر الأشد بالأربعين، [إذا كانت الواو للمدح والوصف فى أحد الوجهين][(١)].

ومن الموجز ومعناه الجمع قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ﴾ معناه: إن الناس لفى خسر، أى لفى خسران، لقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر:١ ـ ٣]، ولا يُستثنى جماعة من واحد، وإنما يستثنى جماعة من جماعة أكثر منهم، وإنّما وحَّد الاسم للجنس.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق:٦]

(١) هذه الجملة ساقطة من (ك).

معناه: يا أيها الناس إنكم كادحون، دلّ عليه قولُه عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق:٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق:١٠]، وإنما وحّد النعتَ لتوحيد الاسم.

وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب:٧٢] معناه: حملها الناس[١] كلّهم، وهذا أحب الوجهين إليّ، لقوله عزّ وجلّ: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٣].

ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ معناه: وإنا إذا أذقنا النّاس منا رحمة فرحوا بها، فلما وحّد الاسم وحّد نعته، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الشورى:٤٨] فأظهر الجمع.

ومن الجمع المراد به الواحد قوله عزّ وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] يعني نوحًا وَحْدَه؛ لأنّه لم يرسل إلى قوم نوح غيره. ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشعراء:١٠٦]، فوحَّد الجمع.

ومثله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحشر:٦] يعني بذلك النبيَّ ﷺ وحْدَه يوم خيبر.

ومن الجَمْع المكنَّى قوله عزّ وجلّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] الناس[٢] في هذا الموضع: الدجالَ. ونزل ذلك في ذكر الدجال، [ونزل ذكرهم][٣] لا ستعظامهم لوصفه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣] يعني رجلاً واحدًا قاله لهم، وهو عروة بن مسعود الثقفي، فجمع لفظه لأجل جنسه، والعرب تجمع الواحد للجنس.

---

(١) في (ط): «حملها ظهره» وأثبت ما في (ك).

(٢) في (ط): «يعني» وأثبت ما في (ك).

(٣) زيادة من (ك)، والعبارة كانت مضطربة في (ط)، فقومتها من (ك).

وكذلك قيل فى أحد الوجوه أن قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة:١٩٩] يعنى آدم ﷺ وحده، وهو أوّل من طاف بالبيت، وأتاه جبريل، وأشعر له المناسك. وقد قرأتُ فى بعض حروف السلف: «من حيث أفاض آدم» فهذا شاهد له.

ومن المقدّم والمؤخّر لحسن تأليف الكَلِم، ومزيد البيان والإظهار، قوله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل:١٠٦] اختصاره ومؤخره: «مَنْ كفر بالله بعد إيمانه وشرح بالكفر صدراً، فعليهم غضب من الله إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان». ولكن وكّد بقوله: ﴿ولكنْ مَنْ شَرَحَ بالكُفر صدراً﴾ لما استثنى المكره وقلبه مطمئن بإيمان، ولم يجعل المكره آخر الكلام لئلا يليه قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ﴾ فيتوهم أنه خبره، وجعل آخر الكلام ﴿فعَلَيْهِم غَضَبٌ مِنَ الله﴾ وهو فى المعنى مقدَّم خبر الأوّل، من قوله: ﴿مَن كَفَر بالله من بَعْد إيمانه﴾ فأُخِّر ليليه قولُه تعالى: ﴿ذلكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ [النحل:١٠٧] لأنه من وصفهم، فيكون هذا أحسن فى تأليف الكلام وسياق المعنى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هؤُلاَءِ قَوْمٌ﴾ [الزخرف:٨٨]. هذا من المعطوف المضمر، ومن المقدَّم والمؤخَّر. فعاطفه قوله: ﴿وعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٨٥] وضميره قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾، والمعنى: عنده علم الساعة وعلم قيله يا ربّ. هذا على حرف من كسر اللام، فأما من نصبها[1]، فإنّه مقدَّم أيضًا، ومحمول على أن المعنى: أى وعنده علم الساعة ويعلم قيله يا رب.

فأما من رفع اللام فقرأ «وقيلُه» فتكون مستأنفة على الخبر، وجوابها الفاء من

(١) قوله: «من نصبها» يقصد قراءة «قِيلَهُ» وهى قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبى عمرو والكسائى. والكسر قراءة عاصم وحمزة. انظر كتاب: السبعة فى القراءات، ص٥٨٩. أما قراءة الرفع فهى قراءة الأعرج وقتادة. وانظر: تفسير القرطبى ١٦/١٢٣ ـ ١٢٤، ففيه تفصيل للمعانى.

قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أى قوله: ﴿إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنونَ ۞ فاصْفَحْ عَنْهُم﴾ [الزخرف:٨٨ ـ ٨٩]. وقد تكون الواو فى قوله «وقيله» للجمع مضمومة إلى علم الساعة، والمعنى: وعنده علم الساعة، وعنده قيله يا رب. جمع بينهما بعند.

فهذا مجاز هذه المقارى الثلاث فى للعربية.

ومما حُمل على المعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ ثم قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام:٩٦] فلو لم يُحمل على المعنى لكانت الشمس والقمر خفضًا إتباعًا للفظ قوله «فالق» و«جاعل» ولكن معناه: وجعل الشمس والقمر حسبانًا، وهى على قراءة من قرأ ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ متبعة لجعل ظاهر.

وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة:٦] فى قراءة من نصب اللام، محمولٌ على معنى الغسل من قوله عزّ وجلّ: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ أيضًا. ومن قرأ: ﴿وأرجلكم﴾ خفضًا حمله على اتباع الإعراب، من قوله عزّ وجلّ: ﴿بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فأتبع الإعراب بالإعراب قبله؛ لأن مذهبه المسح لا الغسل.

واختيارُنا نصبَ اللام فى المقروء على نصب الغسل، واتباع الوجه واليدين، إلا أنه رُوى عن ابن عباس وأنس بن مالك: نزل القرآن بغسلين ومسحين، وسنّ رسولُ الله ﷺ غسل الأقدام، فنحن نفعل كما فعل.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه:١٢٩] من المقدَّم والمؤخَّر. فالمعنى فيه: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمّى لكان لزامًا، وبه ارتفاع الأجل، ولولا ذلك لكان نصبًا كاللزام، فأُخِّر لتحسين اللفظ.

وبمعناه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف:١٨٧] المعنى: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بها، أى ضنين بعلمها.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] أى نأت منها بخير، فقدّم «بخير» وأخّر «منها»، فأشكل.

ومن المؤخَّر بعد توسط الكلام قوله عزّ وجلّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩] فى قراءة من وحّد الفعلَ، وهو متصل بقوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق:٦] لتركبن طبقًا عن طبق، أى حالاً بعد حال فى البرزخ، فأخّر الأحوالَ للقرار فى الدار. وكذلك هو فى قراءة مَن جمع فقال: لتركبن أيّها الناس، فيكون الإنسان فى معنى الناس، كما ذكرناه آنفًا[1]، ويكون الجمع عطفًا على المعنى، وإنّما وحّد للجنس، فكأنّه قال: يا أيها الناس لتركبن طبقًا عن طبق، فأخّر هذا الخبر لما توسطه من الكلام المتصل بالقصة، ومعناه التقديم.

ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:٨٣] وقوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ هو متصل بقوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ إلاَّ قَليلاً، وآخر الكلام: ﴿لاتَّبَعْتُمُ الشيطَانَ﴾. وقد قيل: إن قوله ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ مستثنًى من الأول فى قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ إلا قليلاً منهم، وفى هذا بُعد، والأوّلُ أحبُّ إلىّ.

وعلى هذا المعنى قرأ ابنُ عباس فى روايةٍ عنه: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلا مَنْ ظُلِم﴾ [النساء:١٤٨] جعله متصلاً بقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧] إلا من ظُلم، وصار آخرُ الكلام: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسوءِ مِنَ القولِ﴾ فاصلاً.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ﴾ [الأنفال:٧٣] إنّما هو من صلة قوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال:٧٢] إلا تَفْعَلُوه تَكُنْ فتنة فى الأرض.

---

(١) انظر (ص ١٦٨).

وكذلك قوله في أوّل السورة: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال: ٤ ـ ٥] ليس هذا من صلة الكلام، إنّما هو مقدَّم ومتصل في المعنى بقوله: ﴿قُلِ الأَنْفَالُ لله وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]، و ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾، أي: فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راضٍ بإخراجك وهم كارهون، فاعترض بينهما الأمر بالتقوى والإصلاح والوصف بحقيقة الإيمان والصلاح، فأشكل فهمه.

وعلى هذا قوله عزّ وجل: ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] إنّما هو موصول بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إلاّ قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنَّ لك؛ لأنها نزلت في قولهم: قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، عند قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] فقالوا: فهلا نستغفر لآبائنا المشركين. فنزلت هذه الآية ليستثنى القدوة في إبراهيم في هذا، ثم نزلت الآية الأخرى موعدة له وعده إيَّاها إلى أن علم موته على الكفر فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] الآية.

وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ﴾، وهذا متصل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] إلى آخر المحرمات، ثم قال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ يعني مجاعة.

ومثل ما ذكرناه من علم القرآن كثير، وإنّما نبهنا بيسير على كثير، ودللنا بنُكَتٍ على جَمٍّ غفير، ليُستدل بما ذكرناه على نحوه، ويُتطرَّق به إلى مثله. وهذا كلّه على ضروب كلام العرب، ومعاني استعمالهم، ووجوه استحسانهم. إنّه في كلامهم المطوَّل للبيان، والمختصَر للحفظ، والمقدَّم والمؤخَّر للتحسين. وكلّه فصيح بليغ؛ لأن وصف البلاغة عندهم رد الكثير المنثور إلى القليل المجمل، وبسط القليل المجمل إلى المبثوث المفسر. فالمقصَّر من الكلام عندهم مع الحاجة إلى

المعانى المفرقة عجز، والمطوَّل منه مع الاكتفاء بالمعنى الجامع منه عيٌّ. فلما خاطبهم بكلامهم أفْهَمهُم بعقولهم ومستعملاتهم؛ ليحسن ذلك عندهم [فى المجاوزة][1]، فيكون [المبثوث][1] حجة عليهم من حيث يعقلون؛ لأنه أمرهم بما يعلمون وما يستحسنون، حكمةً منه ولطفًا.

فكذلك[2] أيضًا على هذه المعانى يفهم الخصوصُ من مكانهم ومشهدهم، على علوِّ مقامِهم فى مكان ما أظهر لهم من العلم به، ونصيب ما قَسَم لهم من العقل عنه. فهم متفاوتون فى الأشهاد والفهوم حسب تفاوتهم فى الأنصبة من العقول والعلوم. إذ فى[3] القرآن عمومٌ وخصوص، ومحكمٌ ومُتشابه، وظاهرٌ وباطن. فعمومه لعموم الخلق، وخصوصه لخصوصهم، وظاهره لأهل الظاهر، وباطنه لأهل الباطن، والله واسع عليم. فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

فإذا صفا القلبُ بنور اليقين، وأُيِّد العقل بالتوفيق والتمكين، وتجرّد الهمُّ من التعلق بالخلق، وتألَّه السِّرُّ بالعكوف على الخالق، وخلت النفسُ من الهوى، سرت الروحُ فجالت فى الملكوت الأعلى، وكُشف للقلب[4] بنور اليقين الثاقب [سِدْرةُ المنتهى و][5] ملكوتُ العرشِ عن معانى صفاتِ موصوف، وأحكام خلاق[6] مألوف، وباطن أسماء معروف، وغرائب علم رحيم رءوف، فشهد عن الكشف أوصافَ ما عَرَف، فقام حينئذ بشهادة ما عَرَف، فكان ممن قال سبحانه: ﴿**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ [البقرة:١٢١]. فحقّ التلاوة للمؤمنين، لأنه إذا أعطاه حقيقة من الإيمان أعطاه مثلها من معناه، ومعدنها حقيقة من مشاهدة، فكانت تلاوته عن مشاهدة، وكان مزيده عن معنى تلاوته، وكان ذلك على معيار حقيقة

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): (فذلك» وأثبت ما فى (ك).

(٣) «فى» ساقطة من (ط).

(٤) فى (ط): «كشف القلب» وأثبت ما فى (ك).

(٥) ساقطة من (ط).

(٦) فى (ك): «أخلاق».

من إيمانه، كما قال: ﴿وإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيمانًا... أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

فيكون العبد بوصف من نُعت بالحضور والإنذار، وخُصَّ بالمزيد والاستبشار، فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وفى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إيمانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ التوبة: ١٢٤].

ويكون من نَعْتِ من مَدَحه بالعلم، وأثنى عليه بالرجاء، ووصفه بالخوف، فى قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، فكان هذا من أهل الله وخاصته، ومن محبيه وخالصته.

كما روينا عن رسول الله ﷺ: «أهل القرآن أهل الله وخاصته من خلقه».

وقال ابن مسعود: لا على أحدكم أن يسأل عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآنَ فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وهذا كما قال؛ لأنك إذا أحببت متكلمًا أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله.

وقال أبو محمد سهل: من علامة الإيمان حب الله عزّ وجلّ، ومن علامة حبِّ الله حبُّ القرآن، ومن علامة حبِّ القرآن حبُّ النبى ﷺ، ومن علامة حبِّ النبى ﷺ اتباعه، ومن علامة اتباعه الزهدُ فى الدنيا.

وحدثونا عن بعض المريدين قال: كنتُ فى جدّة إرادتى قد لهجتُ بتلاوة القرآن، ثم رَهَقتنى فَتْرة[1]، فبقيتُ أيامًا لا أقرأ، فهتف بى هاتف من قِبَلِ الله عزّ وجلّ: إن كنتَ تحبنى فلِمَ جفوتَ كتابى، أمَا ترى ما فيه من لطيف عتابى؟

وقال بعض العارفين: لا يكون المريد مريدًا حتى يجد فى القرآن كلَّ ما يريد،

(١) رهقتنى فترة: رهقه: غشيهُ ولحقهُ. وفَتَر: سكن بعد حِدَّة.

ويعرف منه النقصان والمزيد، ويستغنى بالمولى عن العبيد.

وأقلّ ما قيل فى العلوم التى يحويها القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة: ظاهر، وباطن، وحد، ومطّلع.

وقد يقال: إنّه يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من علوم، إذ لكل كلمة علم، وكل علم وصف، فكل كلمة تقتضى صفة، وكل صفة موجبة أفعالاً حسنة وغيرها على معانيها، فسبحان الفتّاحِ العليم.

* * *